آراء للمناقشة

جنايات الشعر والشعراء على الحضارة العربية

عبد الغني المداح

ما هي الحضارة ؟

لنتجاوز التعريفات التقليدية ، أو لنستخلص من مجموعها تعريفا واضحا يكون مفهوما لدى القارىء والدارس ، كما يكون مثار تأمل للمفكر ، وأقترح أن يأتي هذا التعريف بمثل هذه الصيغة :

« الحضارة هي تطور الثقافات وتقدم المعارف جميعها نحو الاصح والافضل في مسارات متوازية ذات اتجاهات ثابتة تتفق ومسارات الكون واتجاهاته » .

وحتى هذا التعريف قد لا يكون دقيقا ما لم يؤخذ بنظر الاعتبار عند صياغته واقع المكان وحركة الزمان ونسبية العوامل المؤثرة في تكوين شخصية الشعوب والامم المختلفة كل على حدة ، فعندئذ يسهل تحديد معنى المفردات وشرح كل منها شرحا فلسفيا ، مثل كلمة « تطور » و « ثقافة » و « معرفة » و « مسار » و « كون » و « زمان » و « مكان » . اذ ان حصيلة أفكار المفكرين والفلاسفة قد وضعت أمامنا قاموسا ضخما من التعريفات والشروح ، فتقتصر مهمتنا ، ونحن نبحث في حضارة معينة ذات خصائص متميزة كالحضارة العربية ، على تطور هذه الحضارة وعلاقة الشعراء بها وهل كان الشعر جزءا منها أم كان كلاّ لها ؟

ولكن ما هو الشاعر ؟ وما هو المفكر ؟ واذا أردنا التقيد بمعاني الحروف نقول : من هو الشاعر ؟ ومن هو المفكر ؟

بكل بساطة نعرّف الشاعر بالانسان الذي يعبّر عن أحساساته بالاخيلة والغرض ، بغض النظر عن وسيلة التعبير التي يستعملها نظما كانت أم نثرا ، والمفكر هو الانسان الذي يعبّر عن احساساته بالرياضة والتجرد ، بغض النظر عن وسيلة التعبير التي يستعملها نظما كانت أم نثرا . وهذا التداخل أو التشارك في وسائل التعبير لا يمكن ان يكون حائلا في عزل الاخيلة عن الرياضة والغرض عن التجرد لفهم معنى التقدم الحضاري بصورة عامة .

وقبل اقتحام مثل هذا الموضوع الشائك يتحتم علينا العدول عن اشتقاق الحضارة من الحضر أو الحاضرة كما فعل الاقدمون ، ووضعوا البداوة والبدو نقائض لها . لان البدوي المتأمل بأبراج السماء في محاولة لادراك مواقعها أو حل لغزها أكثر تحضرا ـ حسب الصيغة المقترحة ـ من الحضري الذي اكتفى بعبادة تلك الابراج تقليدا لآبائه . ولان الانسان الصحراوي الذي ينفعل عند ملاحظة دائرة الافق اكثر تحضرا من الانسان الذي لا ينفعل عند ملاحظة مستطيلات داره وأشكالها الهندسية ويعتبرها جزءا من حياته اليومية . وبهذا الخروج عن المعنى الاشتقاقي نقدر أن نربط بين كلمة « الحضارة » وبين الفكر الانساني أينما وجد بأمانة علمية ، ثم نقدر أن نطبق أهمية هذا الترابط على المعارف أن جاءت بداهة ضمن سلوك انسان المدينة ، لان الحالات (الزمكانية) جميعها ذات صلة مواسطة بالحس

الانساني ، وهي ذات درجات مختلفة من الادراك ، كما ان جميع المعارف مهما كانت كامنة أو ظاهرة أو معقدة او منفتحة ، ذات ارتباطات بمدارك الانسان النسبية . ومن هنا تنشأ : معضلة التفاوت في الادراك بين المفكر الذي يؤطر احساساته وانفعالاته بالرياضة والبرهان ، وبين الشاعر الذي يؤطر احساساته وانفعالاته بالاخيلة والوجدان .

امامنا معلقة امرىء القيس ، فلنقرأ البيت الآتي منها :

مكرّ مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطّه السيل من عل

فعندما تناول الادباء هذا البيت أو شرحه الشارحون قالوا : (مكرّ مفر بكسر الميم فيهما على وزن مفعل وهو من أوصاف المبالغة ، ومعنى مقبل مدبر معا ، انه فرس سلس العنان ، وشبهه في عدوه بالحجر لان الحجر يطلب الانحطاط بطبعه من غير واسطة فكيف اذا أعانته قوة السيل من عل ؟) . وبقي هذا الشرح مثار دهشة الادباء واعجاب الشعراء منذ عام (٥٦٥) للميلاد ، وهو عام وفاة امرىء القيس كما زعموا ، حتى عصرنا الحاضر ، وقد أضاف اليه بعضهم – تعالما – صفة النسق الموسيقي في التعبير والجمال في تصوير فرس سلس العنان كأنه حجر حطّه السيل من عل ، فهو عند تدحرجه يرى وجهه وظهره في آن واحد لسرعة تقلبه .

فلو أتيح لمفكر في ذلك الزمان أن يقف في سوق عكاظ ويقول : يا قوم ان شاعركم لم يقصد ان الحجر يطلب الانحطاط بطبعه من غير طاقة كامنة أو متحركة وانما قد أشار من غير أن ينتبه الى قوة جاذبية الارض في هذا الوصف والتشبيه ؛ لان الحجر لا يتدحرج لذاته ما لم تكن قوة تجذبه أو تدفعه نحو مصدر الجذب من أعلى الى أسفل – لو أتيح لمفكر أن يقول مثل هذا القول الفيزياوي في حينه لحزن عليه أهله شفقة على ذهاب عقله وجرجروه الى الكهنة ليخرجوا من جوفه جنة تقمصته ، وان كررها يئسوا من شفاء عقله وربما رجموه !

ولو أتيح لمفكر آخر بعد هذا التاريخ بزمن بعيد أن يقول : – يا أيها الناس ، ان أبا الطيب المتنبي انتبه الى تأثير مركز الكرة الارضية على الكتل والاجسام في قوله :

أنا صخرة الوادي اذا ما زوحمت
واذا نطقتُ فانني الجوزاء

وذلك لان صخرة الوادي كتلة أقرب الى مركز الارض بالنسبة لصخرة الجبل فتكون هي الاثقل حتى لو ساوتها حجما ونوعا ، وان كلمة « مزاحمة » التي استعملها أبو الطيب تتحمل بكل جدارة علمية معنى الدفع والمقاومة ، ومعنى الحركة والسكون ، ومعنى السرعة والتعجيل ، ومعنى الطاقة الكامنة والطاقة المتحركة ، ومعنى الفعل ورد الفعل . نعم لو ظهر في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) من يفسر قول المتنبي بمثل هذا الاتجاه العلمي ، لساقوه الى حتفه بتهمة الزندقة او الخروج على الجماعة .

والسؤال الآن : لماذا لم يظهر مثل هذا المفكر في مشرقنا العربي ووجدناه قد ظهر في مكان آخر على ضوء انتباهات أقل شأنا من حجر امرىء القيس أو صخرة المتنبي أو كواكب بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فنحن نعلم ان اسحاق نيوتن وضع قوانين الجاذبية لمجرد ان سقطت تفاحة من غصنها الى أسفل ولم (تسقط) أو ترتفع الى أعلى . والجواب على هذا السؤال يتحدد بشكلٍ ما عندما نسبر غور الاتفاق غير المسجل بين الشعر والشاعر ، وبين الممدوح والسلطان، بغضّ النظر عن كون الممدوح أو السلطان قبيلة أو شيخا او مالكا أو خليفة أو طالب جاه . وهو اتفاق مقايضة يتبادل فيه الطرفان المدح بالاموال واتقاء الهجو بالمغانم. وفي حينه قالوا ان الشعر أعذبه أكذبه ، فهناك كاذب عذب التعبير هو الشاعر ، ومكذوب عليه مليء الجيب أو الخزانة هو الممدوح أو المعرّض للهجو . وهناك ملفّق يدبج الاخيلة ، وهناك مصدقٌ لتلك التلفيقات فيرغب فيها ممدوحا ويرغب عنها مهجوا . وهذا الاتجاه في تقييم الشعر والشاعر أدى بالضرورة الى التهاون في تطوير قيمة المفكر والوقوف في سبيل مبادراته الرياضية ، فلم يجد أمامه الا أن يكون مرتزقا أو معرضا للتصفية الجسدية بتهمة الزندقة أو الالحاد ، طالما أفكاره لا ترفع من شأن أحد أو تمنعه المفاخرة بأعذب القول وأكذبه .

يروي المؤرخون – على عهدتهم – ان قيس بن عاصم التميمي ، التقط من مذحج الاسرى في معركة جاهلية عرفت بيوم (الصفقة) ، كان بينهم الشاعر « عبد يغوث » فشدوا لسانه قبل قتله لئلا يهجوهم قبل موته فيحطّ قوله منهم ، فأشار اليهم ليحلوا لسانه ولا يهجوهم فحلوه فقال :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا
فما لكما في اللوم نفع ولا ليا
ألم تعلما ان الملامة نفعها
قليل وما لومي أخي من شماليا
أقول وقد شدوا لساني بنسعة
معاشر تيم أطلقوا من لسانيا

كأني لم أركب جـــوادا ولـم أقـــل
لخيـــلي كرّي كرّة مـــن ورائيـــا

هذه الحكاية تعطينا فكرة أولية عن اهمية الشاعر في طغيانه على التفكير المنطقي في معالجة ابسط الامور الحياتية منذ عهدها البدائي ، فهم خافوه شاعرا ولم يخافوه مفكرا أو ناصحا أو فارسا .

وقد استفادت هذه الاتجاهات الشعرية من نرجسية السلطان ورغبته الجامحة في أن يكون هو الافضل من اقرانه . وامـــام مثل تلك التيارات اضطر المفكرون أن يترددوا في الظهور او أن لا يظهروا ، لان مجرد ظهورهم يكفي للدلالة على ان الشعر ــ كما عرفناه ــ خصم لدود للفكر (وليس هو سوى عرض الشعـــور مجسما في صورة ذهنية ، وعلى الرغم من ان هـــذه الصورة من شأنها أن تمتع المستمـــع في الظروف العادية فيجب أن لا نخطىء فنعتقـــد ان الشعر هو العمل النفعـــي العمـــلي) .

وهذا الراي الـــذي يقرره الفيلسوف الايطالي (كروتشيه ١٨٦٦ ــ ١٩٥٢) يضع أمامنا حافزا لاعـادة النظر في أسبـــاب تخلف حضارتنا العربية وفقدان المبادرات العلمية من أيدينا تجاه كثرة الشعراء في تراثنا وقلة الفلاسفة والمفكرين ، وفي بعض الازمان ندرتهم . فاذا تصفحنا كتب التراجم في تراثنا العربي فقلما نجد ترجمة كاملة بأعمال كيمياوي أو فيزياوي أو فيلسوف او طبيب ، وان وجـــدنا امثال هؤلاء فـذلك بمقدار علاقتهم بالسلطان لا بمقـدار اختصاصاتهم وممارساتهم العلمية . والا فانهم صور للبؤس والعنـــاء والملاحقة بتهمة الالحاد والزندقة أو التستر بأعمالهم . وهـــذه الصعوبات التي كانت تعترض سبيـــل المفكر العربي فتطمس معـــالم ابداعاته ــ ان وجدت ــ كان يقابلهـا الاهتمام بالشاعر واكرامه ومتابعـــة اعماله وتسجيل نوادره ما قبح منها وما حسن . وكان السلطان يفـاخر بعدد الشعراء الذين يقفون في باب قصره فـي الوقت الذي يفاخر بانه ارسل طبيبه الى الموت لانه لم يحسـن وصف دواء يشفيه من علة طارئة أو مزمنة . ولما كانت الحضارة كما أشرنا هي تطور مجموع الثقافات والمعارف جنبا الى جنب ، نجـــدها عند طغيان الشعر والشعراء على باقي دروب المعرفة قد انحسرت عن المســار المرجو لها ووقعت في مأزق جمة ، ففقـــدت بذلك قيمتها (الزمكانية) بتأثير ذلك الطغيان الشعري ، كما فقدت قيمتها في « ادراك الترابط والاتفاق أو ادراك الاختلاف والتنافر في اية فكرة من الافـــكار المطروحة سرا أو جهرا » على حد راي الفلسفة .

أما الشعر منذ العصر الجاهلي حتى الآن فانه بعيد عن ادراك الافكار الرياضية بكافة أغراضه ، لانه لا يتفق وحقيقة الاشياء ، وان كان بعضه يشير بشكل ما الـى الاشياء ، فانها اشارات الـى الظواهر دون الحقائق . فها نحن نرى كيف ان الشاعر يصف البـــرق والرعد والمطر فلا تتعدى تشبيهاته لمعـــان السيف وابتسامة الحبيب وصوت البطل وقرقعة السيوف ودموع العشاق وكرم الممدوح ، فيضع الاشياء فـي قالب جمالي أخـاذ وصياغة مجازية بديعة . بينما المفكر يبحث عـــن علاقة البرق بالرعد بالمطر ليتوصل عاجلا أم آجلا الى وجـود الكهربائية بقطبيها السالب والموجب ، ويتوصل اليـوم أو غدا الى سرعة الصوت وسرعة الضوء ، ويتوصل الى التركيب الكيمياوي للماء وعـــلاقة كل ذلك بالتحولات الفيزياوية وعلاقة الرياح بالتيارات العليـــا أو الارضية بالمطر . فأيهما الحضـــارة اذن : سيف الامير كالبرق وصوت البطل كالرعد وكرم الممدوح كالمطر ، أم الكهارب التي تحملها الغيوم وبتصادمها يحدث كل ذلك ؟ وأيـن موقع المعرفة : أهي في الجائزة التي تسلمها الشـــاعر لقاء أخيلته ومبالغاته العذبة ، أم بتهمة الخروج عـلى القواعد المثبتة أصلا لحماية السلطان بألسنة وعاظه التي وصموا بها المفكر لانه أراد معرفة السر من وراء الظواهر ؟ « صحيح ان باستطاعة العقل الخالص أن يصل الـى حقائق غير قـــابلة للتناقض » كما يرى الفيلســوف (الكسيوس ميونج ١٨٥٣ ــ ١٩٢٠) ولكن من الصحيح ايضا ان العقل قد ينحرف فيما اذا كـــان واقعا تحت ضغوط ايجابية كمنح الجائزة من قبل منتفع بعمل معين الى نافع تهزه الاغراءات فيسحق الحقيقة من أجل المنفعة المتبادلة ، أو كان واقعا تحت ضغوط سلبية كالعقـاب على ابداء آراء مخالفة للرغبة حتى لو كانت متفقـة مع المعرفة . **والشعر في التاريخ العربي كان دائما بمثـل العقل المنحرف عـن مسار الحضارة لارتباطه بالجـائزة والمنفعة ، لذلك كان من اقوى عوامل اعاقة المعـــارف الحضارية عن المسار الزمني الطبيعي .**

يقول الدكتور فيليب حتي في أحد مؤلفاته : « ان الغربي اذا وقف أمام شلالات (نياكارا) لبهرته وترجـم انفعاله في محاولة البحث عـن أفضل السبل للاستفادة من هذه المياه ، واذا وقف الشرقي أمـام تلك الشلالات لبهرته ايضا ولكنه يترجم انفعالاتـه بقصيدة طنانة » . وأقول ان مثل هـــذه القصيدة التي اقترحها الدكتور فيليب حتي ، لا يمكنهـــا أن تحمل معنى العلاقـات الرياضية بين الاشياء أو العلاقات بين الكميات الساقطة من الشلال وبين المســـاقط الهندسية والسطـــوح والاحجام ، ولو طالبنا الشاعر بمثل هذه الحضـارة أو المعرفة لسخر منا غرورا وأدبر برما بعد أن يلقي علينـا درسا بالبـــلاغة والبيان والاحساس بالجمال ، وقد لا يعترف ان اللغة بأساليبها المختلفة وسيلة للتعبير من أجل فهم الاشياء أو تفهيمها ولا يمكنها أن تقتصر عـلى تصوير الانفعالات من الوجهة الجمالية . اذ ان معطيات الحس وحدة يتصـــل بعضها ببعض وتمثل المعايير

الدقيقة لادراك الحضارة ، **واما مجرد وصف الحضارة جماليا فذلك تخلف ذهني قبل أن يكون تخلفا في ادراك معنى الحضارة نفسها** . ولا يمكن أن يصبح الشيء معرفة ما لم يكن هناك تطابق بين الحقيقة والشيء المعبر عن مفهوم تلك الحقيقة ، وكان الشعر ولا يزال عاجزا عن هذا التطابق ، فهو ظاهرة ترفية حتى بأغراضه الكئيبة مستندة على المظاهر . ولكن المنعطفات الكثيرة في التاريخ العربي كانت قد أعطت قيما آنية للشعر فتمسك بها الشعراء وأهملت قيم المعارف والثقافات المختلفة فتعثرت مسيرتها تعثرا أفقدها المبادرة .

ولكي يكون الامر واضحا، نضرب مثلا في أميرين من أمراء البيت الاموي ، أحدهما عالم وثانيهما شاعر . الاول هو خالد بن يزيد الاموي . وكل ما قالوا عنه « انه كان من أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صنعة الكيمياء والطب ، وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما وله رسائل دالة على معرفته وبراعته » ولكننا لا نزال نجهل انشطته العلمية عبر متابعة المؤرخين لان وضع المفكر العالم لم يكن مثيرا للمتابعة لانعدام الجائزة ، فلم يبذل جهدا ما في تسجيل أعماله العلمية لتكون قاعدة للتطوير . بينما نجد الامير الاموي الثاني (الوليد بن يزيد) قد ملأت أخباره الكتب والاوراق بقضها وقضيضها ، حتى وصلت الاصفهاني فسجلها في أغانيه اذ راح يحدثنا بحكاية فرحته يوم نعي اليه الخليفة هشام بن عبد الملك وكان هو وليا للعهد فأنشد :

طاب يومي ولذّ شرب السلافه
اذ أتاني نعي من الرصافه

وأتانا البريد ينعي هشاما
وأتانا بخاتم للخلافه

فاصطبحنا من خمر عانة صرفا
ولهونا بقينة عزّافه

فكانت هذه كل آمال الشاعر الحضارية ، بينما كانت آمال العالم محاولات كيمياوية وطبية ، فطمست خبار العالم وأشهرت أخبار الشاعر .

ولنضرب مثلا آخر في (محمد بن أحمد البيروني) اذ انه حصد التعب والفاقة عندما اشتغل بالفلسفة والرياضيات وعلم الفلك ، مما دفعه الى أن يكون شاعرا، فلم يشفع له قوله : « اذا طلبنا العلم وجب علينا أن نصفي عقولنا من جميع العوامل التي تؤدي الى الزلل فنتحرر من التقاليد التي قد تعمينا » عند السلطان محمود الغزنوي مثلما شفع له الشعر ، فضحى بالحقيقة من أجل المنفعة .

وأحيانا تكون مثل هذه التضحية موقتة بالنسبة لمنطق الزمن طالما ازدواجية الافكار الحضارية مع الشعر تنفصل عن بعضها، فخلد البيروني المفكر وضاع البيروني الشاعر . غير اننا وجدنا المفكر يعود الينا من الغرب لان حضارتنا بقيت تحت وطأة الشعر .

وقد لاحظنا محنة المفكر تتجسد في العصر العباسي أحيانا باسم الفكر نفسه خلال تبادل المنفعة بين المذاهب المختلفة . ففي عصر المأمون شع بصيص من النور نحو التشبث بالمبادرة العلمية ، الا ان حماقات امتحان الفقهاء بمذهب المعتزلة سببت ردود فعل عنيفة تجاه حرية الفكر في عهد المتوكل كان المعتزلة أنفسهم من ضحاياها ، وكان للشعر في كلا العهدين الشأن الاكبر في تقدير سلوك المأمون وهو يتبنى أفكار المعتزلة ، وفي تقدير سلوك المتوكل وهو يدين أفكار المعتزلة . وهذا لا يعني ان العلم وحرية الفكر نقيضان للشعر والشعراء أو ان الشعر والشعراء خصمان لدودان للعلم وحرية الفكر ، وانما يعني ان الشعر والشعراء في أغراضهما كافة يسيران في مسار ذاتي لا يتعدى الطموح الشخصي، بينما الفكر والعلم يتعديان بطموحهما الى المجالات الانسانية كافة على حساب التضحية بسعادة المفكر وسعادة العالم بمقدار المعرفة التي يحققانها لخدمة الناس .

والشعر يتحدى القيم مدحا أو قدحا أو مبالغة في الوصف ، والفكر يمجد القيم لانها بنظره سلسلة من المثابرات متصلة بعضها ببعض . فمخترع الطيارة يمجد ذلك السومري المجهول الموغلة أفكاره في القدم لانه صنع العجلة فوضع القاعدة الاولى للميكانيك ، بينما الشاعر يغضب لان شاعرا سبقه في معنى أو شاعرا لاحقه في وصف ، ومن أجل اعطاء ذاته قيمة خاصة يتكلم عن القديم والحديث وسقوط المعاني القديمة وابتكار الاساليب الجديدة . وهكذا تسقط الحضارة بين رغبته وفرديته . وهذا يختلف عن المهندس حينما يقيم جسرا فيتعامل مع ذاته ، ولكن في الوقت نفسه سيكون ذلك الجسر ممرا شامخا للعلم والفكر الى جانب المجد الشخصي ، بينما الشاعر عندما يصنع قصيدة يتعامل مع ذاته ويرفض أن تكون ممرا لغيره أو أن يجاريه فيها أحد ، وان حدث ذلك راح يتربص بالسرقات والاقتباسات والتقليد ليدين غيره . وهذا من أوضح الفروق بين المفكر وبين الشاعر أو بين الافكار العلمية وبين الشعر . فمجد الشاعر أن ينال الجائزة وأن يصفق الناس له حتى لو تكسرّت أكفّهم ، ومجد المهندس أن يرى الناس يعبرون بثقة على الجسر الذي صنعه من غير أن تتعب أقدامهم أو يتعرضوا للخطر ، ولا يتوقع منهم الجائزة بلّ ولا يتوقع أن يذكروا عنه شيئا أو عن الجهد الذي بذله فسهلّ عليهم التعاملّ اليومي في العبور أثناء ممارستهم لمتطلبات الحياة .

قد يعترض علينا من يقرر ان الشعر جزء من الفكر

والعلم جزء آخر ؛ وان قبلنا هذا التقرير من حيث المظهر فكتب التاريخ العربي تحفزنا على رفضه ، وقد وضعت بين أيدينا جدولا كبيرا من المفكرين الذين دثرت أعمالهم وأحرقت كتبهم لانهم أرادوا فهم الكون وتفهيمه للآخرين فماتوا صبرا ، كما وضعت جدولا أكبر من الشعراء قال بعضهم كل الحماقات ومارسوها فثبتت أعمالهم وعاشوا ترفا . ومن الجدير بالاشارة ، ما لاقاه فكر ابن حيان التوحيدي من اهمال ورفض في حينه ، وما لاقاه شعر ابن الحجاج من تقدير وقبول ، وما لاقاه أبو تمام الشاعر من عناية في تدوين أخباره وأعماله ، وما لاقاه صانع الساعة المائية أو مخترعها من تجنّ تاريخي حتى انه أصبح نسيا منسيا لا نعرف حتى اسمه . ونحن لا نلوم العصر الذي سحق المفكر وساعته بقدر ما نلوم المنعطفات المتعاقبة في التاريخ العربي التي أعطت زمام الافضلية للشاعر كسند اعلامي لتلك المنعطفات ، بينما أعطت للعالم والمفكر زمام الخذلان حتى جعلته في معظم الاحيان يشكّ بأهمية مصابيح العقل المرشدة الى الحقيقة . ولكن تلك المصابيح استفاد من نورها ، على ضآلته ، المفكرون البعيدون عن الحضارة العربية ، وساروا على هديها تارة وسرقوا أسرارها تارة أخرى ، وادعوها لأنفسهم وتركوا موقدها العربي أو الشرقي يقاوم الفاقة والعوز والعتمة والموت ، بتهمة الكفر والالحاد في خضم من المجابهة غير المتكافئة بين الحقيقة والمعرفة وبين الكذبة الشعرية . وهذه الحال هي التي أعطت التفوق للشاعر وسببت الانحسار للحضارة العربية أو تسرب قواعدها الفكرية خلسة الى أمم أخرى استفادت منها ومازجتها مع ما لديها من المعارف، فأصبحت المبادرة الحضارية بيد تلك الامم بعد أن أفلتت من يد المفكر العربي تحت الضغوط والنزعات الذاتية التي كان الشعر والشعراء من عناصرها الهامة والمؤثرة وهما في سبيل تيسير ما يمكن من اللذة المعنوية والاحتياجات الآنية وتحويلها بالمقولة البراقة الى الشعور بالابداع ، مما هدد القدرات العقلية ذات التفكير العلمي وكيّفها لتكون خاضعة لما هو مقبول عرفا أو غير مقبول تحت وطأة المفاهيم السائدة التي لا تتزحزح لصلابتها وجفافها . ولكن المفكر الاصيل لم يبح لنفسه ممارسة الالتواء في البحث عن الحقيقة بفعاليات تصوراته العلمية ، لانه اذا أباح لنفسه ممارسة الالتواء يكون قد عمل على افراغها من لذة البحث عن المعرفة بالصدق والتأمل والاستنباط . بينما الشاعر كان له الاستعداد الكامل للالتفاف حتى حول نفسه من أجل تحقيق ذاته معبرا عن عواطفه هو وهمومه هو ، ان كانت عواطف أصيلة أو طارئة أو كانت هموما حقيقية أو مفتعلة ، ومن هنا يكون المفكر قد حدد مكانه ، ولكنه عجز عن ايجاد من يوصله اليها لانه لاقى في سبيل ذلك عقبات تتحدى وجوده ، تارة باسم الدين وتارة باسم العرف والجماعة وتارة بتأليب الغوغاء والجهلة عليه وعلى أفكاره . في الوقت الذي وصل الشاعر الى مكانة ووجدها وراء كل قصيدة مكذوبة أطارها البيان والبديع والانفعال المبين. وهذا الاطار الذي حدد مكان الشاعر في المجتمع العربي هو الذي قصم ظهر المعرفة وتقدمها نحو الاصلح والافضل ، فقضى الخليفة عليها قبل أن تتطور من علم الكلام الى علم التجربة والاستنباط وقبل أن يصل أصحابها الى معرفة الحقيقة من موقع الشك . وان كان الغزالي قد تخطى الشك في كتابه « المنقذ من الضلال » باحثا عن الحقيقة فقد كان بمثابة المملوك الشارد من سيف الجلاد الذي ذبح الفكر الانساني بسيوف الشعر والشعراء . ولكن هذا الفيلسوف الشارد من العرف سجل لنا فلسفة الشك قبل (كانت) بمئات السنين بمبادرة ذاتية من غير أن يطورها أحد من بعده لتنبثق الحضارة من الشرق ، من هنا ، وليس من الغرب أو هناك . وان كانت هذه الومضة الغزالية قد ظهرت في تلك الاحقاب سعيا وراء معرفة الحقيقة فقد أدت بأصحابها في أحسن الاحوال الى التصوف كما حدث للغزالي نفسه صاحب هذه الصيحة العظيمة . وهذا أفضل من الموت صبرا كما حدث للحلاج . ولا بد من الاشارة أيضا الى ان الغزالي كان قد توصل بعد دراسته للفلسفة الى ان المعايير المتعارف عليها لا تصلح أداة لمعرفة الحق بل الاداة الصالحة عنده هي ـ الذوق الباطني ـ وهذا الاصطلاح وضعه الغزالي منذ القرن الحادي عشر للميلاد للدلالة على الحاسة السادسة أو الوعي الباطني الذي وفد الينا من الغرب في مطلع هذا القرن . وهو منطق مقبول بالنسبة للحضارة العربية لانه يقضي بأن لا تبقى أفكار الغزالي عند أهله وقومه لانه مفكر وان تعود الينا من الغرب بلبوس آخر . بينما يقضي المنطق نفسه أن نتوارث سلسلة طويلة من شروح ديوان البحتري لانه شاعر . وهذه المقارنة ليست من عندنا ؛ اذ ان فيلسوف الشك المعترف به (كانت) والذي تأخر عن الغزالي بمئات السنين يقول : « ان الشعور والتفكير أمران مختلفان » ، وهو ينسبهما الى ملكتين متميزتين : الاولى (الشعور) هي الحس بالاشياء ، والثانية (التفكير) هي فهم الاشياء » . ومن هنا تجعل هذه الفلسفة الشاعر يحسّ بالشيء وقد لايفهمه ، بينما المفكر يتناول الشيء ويضعه تحت اختبارات المدركات العقلية وتطبيقها على كلّ جزيئات الشيء ، فينتج عن ذلك فهم حقيقي لذلك الشيء ان كان علما رياضيا أو فلكيا وفلسفة أو ميكانيكا وغير ذلك من العلوم التي تعتمد التفكير ولا تكتفي بالحسّ ... والا ما فائدة أن يصف الشاعر شجرة بأجمل بيان تجاه مفكر يتعقب نسغها من الجذر حتى اليخضور (الكلوروفيل) خطوة خطوة ويراقب سبل تغذيتها وأسباب نموها جزءا جزءا ؟

ولا مندوحة لنا من الاعتراف بأن حضارتنا العربية على مـــدى الازمان عجزت عن أن تفاخر بالخوارزمي وابن الهيثم وابن رشد مثلما فاخرت بأبي العتاهية وأبي نواس وابن زيدون ، وان كنا اليوم في القرن العشريـن نمجد تلك القلة من المفكرين ، فذلك لاننا وجدنا مـــن منحهم التبجيل والاحترام وعرفنا بهم كأنهم ليسوا منا أو اننا لسنا منهم . وكابوس سيطرة الشعر والشعـراء على الحضارة العربية لا يزال يصدر أحكاما على الجزئيات ويتهيب اصدار الاحكام على الكليات الرياضية أو الكونية. فانكفاء العلماء في أزمانهم تقية وحذرا لم يمنع أفكارهم من الظهور عندما وجدت البيئة الصالحة التـي لا تتردد عن الاعلان بأن (لوغرتمات الخوارزمي) لا يضاهيهـــا ألف ديوان من الشعر يصف الناقة والصحراء بالحماس نفسه الذي يصف عطـــاء الخليفة وكرم الامير . واذا تبسطنا أكثر في مقارنة الشعر بالفكر وجناية الاول على الثاني ، نجد ان الحسّ بالاشياء الـــذي يتعامل معه الشاعر عن حسّ حقيقي أو حس مزعوم هو الذي أفقد التجربة العلمية قيمتها في التطور أو التطوير ، فـــلم يبق في تلك العهود قيمة للقول الذي يؤكد دور الخبرة والمعرفة وان الافكار مستمدة من القدرات العقلية . وعلى سبيل المثال ، فان الخبرة والمعرفة تقران لنا بما لا يقبل الشك ان كثيرا من الازهار الجميلة تحمل سموما قاتلة فتكون في منطق العلم ليست بذات فائدة مباشرة بينما هي في منطق الشعر تمثل وجنتي الحبيب أو الحبيبة. وهذا ما وضع العقبات في وجه المفكر العربي وخصوصا عندما يحتم عليه العرف العام أن يكتفي بالظاهرة ويتجنب تمحيص جزئياتها . وأما اذا أصر على التتبع والمحاكمـة العقلية وأنتج لنا كتاب « الحيوان » كما فعل الجاحظ فانهم ينظرون اليه نظرة مريبة لانـــه زنديق معتزلي يبحث عن الحقيقة بعلم الكلام ، فعليه أن يمـــوت تحت كتل أوراقه وقراطيسه ودفاتره .

ومرة ثانية أقول : لا لوم على الازمان التي أعطت السيطرة للشعر وسلبت حتى التكافؤ من المعرفة ، لان كل زمن من تلك الازمان لم يتسع لغير ذاته ولم يكن فيه ثمة وضوح للمستقبل ، وكان الشاعر أقدر تعبيرا عن آنية الزمن وظرفه ، مما خذل المفكر الذي أراد أن يكون زمنه مقدمة لكل الازمان . وهـــذا ما قرره ابن خلدون بمقولته ان العالم أوسع من أن يحيط به عقـــل بشري وأبعد من كل الازمان . وتتلخص مقولته بأن (الاشيـاء المحسوسة لا تدرك بالمشاهـــدة « وهذا هو مـذهب الشعراء » ومن الضلال أن يظن بأن الانسان قـادر على معرفة العالم بالمنطق الخالص ، فلا بد أن تكون التجربـة هي أساس علمنا بالعالم « وهذا هو مـذهب المفكرين » وليس المقصود هو التجربة الفرديـــة بل المقصود هو تجارب الانسانية كلها) . هـــذا هو ملخص رأي ابن خلدون كما راجعه وثبته الدكتور زكي نجيب محمود . ولكن أين هو موقع أفكار ابن خلدون من زحمة الشعراء أو أين هو قبل أن ينبهنا اليه أهل الغرب ؟

واذن فان جناية الشعر والشعراء على الحضـارة العربية لا تغتفر ، وهي لا تقتصر على عصر من العصـور بعينه وانما تشمل كل العصور . وسنتناول ذلك تفصيلا في فصول قادمة .

بغداد

صدر حديثا :

الطريق الى الخيمة الاخرى

دراسة في اعمال غسان كنفاني

تاليف الدكتورة رضوى عاشور

دار الآداب